مجلة فكرية ابداعية

مجلة شهرية تصدر مؤقتا اربع مرات في السنة
السنة الرابعة ـ العدد الرابع عشر ـ 1979

المدير المسؤول : محمد بنيس

هيئة التحرير : محمد البكري
مصطفى المسناوي
عبد الله راجع

العنوان :
ص. ب. : 505
المحمدية ـ المغرب

الموضوعات

● دراسات

بهتان ثقافي لـ « مسخ » سياسي
أحمد أوبلحاج 3

الوعي الشقي : اليسار الاوروبي والصهيونية
عبد الكبير الخطيبي 22

وضعية الفتاة العاملة بمعامل الزرابي بطنجة
أحمد لمرابط 32

أدونيس : ثابت بصيغة متحول
منير العكش 66

باشلار والمادية التاريخية
محمد وقيدي 98

من أجل فلسفة عربية للممارسة
سليم رضوان 113

المضمون الايديولوجي للخطاب الادبي في الابتدائي
اباعقيل العربي 119

● شعر

يوميات قلعة المنفى
عبد اللطيف اللعبي 125

أنت مثقلة بالأجنة
محمد محمد الاشعري 132

● قصة

من كل حدب وصوب
ادريس الخوري 135

● من تراثنا الحديث

الادب العربي في المغرب الاقصى
محمد بن العباس القباج 144

● مناقشات ، متابعات ، كتب ، مجلات ، بيانات ...

حول مهرجان الشعر الامازيغي الاول بالناظور
محمد ابزيكا 153

● مؤتمر الادباء الشباب الأفروآسيويين ـ الما آتا أبريل 1979 160

نقد المقرر الرسمي للفلسفة
علي اكبر ياسين 165

حول ضرورة الممارسة النظرية
محمد رضا الكباص 169

● الجمعية المغربية لحقوق الانسان / بيان حول حقوق الانسان 174

الاشتراكات :

المغرب : الاشتراك العادي 20 درهما
اشتراك المؤسسات 50 درهما

الاقطار العربية واوروبا :
الاشتراك العادي 50 درهما
اشتراك المؤسسات 150 درهما
اشتراك المساندة : ابتداء من 50 درهما

تبعث الاشتراكات باسم
محمد بنيس
الحساب البريدي 1.383.41 الرباط

1 ـ المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها .
2 ـ المقالات التي لم تنشر لا ترد الى أصحابها .

بهتان ثقافي لـ « مسخ » سياسي

أحمد أوبلحاج

أولا : تمهيد : في المنهج :

اهمية كل منهج ومعيار صحته ، سواء على مستوى التفكير أو الفعل ، الفرد أو الجماعة ، هو مقدار ما يعصمنا التمسك به من الوقوع في الاخطاء ، وبالمقابل مقدار ما يضمنه لنا من نجاحات . وهو بهذا المعنى السر الذي يكمن وراء كل اخفاق عند فساده أو انتصار عند سداده .

وليست مسألة اختيار أحد من المناهج الفكرية قضية ذكاء أو ارادة ، بل هي في نهاية التحليل قضية مصالح تفرق بين الناس « أفرادا وجماعات » في مستوى تبني منهج ما في حيواتهم أو سلوكهم وتفكيرهم ...

والتفكير العلمي ومنجزاته ، وما يوفره لنا اليوم من منهج واقعي ، مادي وموضوعي ، يكفل للآخذين به في [illegible] الشروط الأولية والضرورية لمسيرة فعالة في تغيير محيطهم وكياناتهم في الآن نفسه [illegible] وأجمل في الحيـاة .

ومن أهم ما يعلمنا العلم اياه ، صدورا من دروس الحاضر والماضي ، وفي ميدان معاش الناس وحياتهم ، خصوصا وما يتصل بموضوعنا :

أ ـ أن ننظر الى الواقع كما هو اذا كان هدفنا حقا تغييره ايجابيا ، وان ننتبه في الدرجة الثانية الى قوانينه العامة والخاصة . ومن ابرز ذلك ما يزخر به من تناقضات شاملة ومتعددة المستويات هي عامل تحركه وتبدله الدائم ايجابا أو سلبا ، تقدما أو تخلفا .

ب ـ تلك التناقضات المتعددة لا تكون في كل لحظة على نفس الاهمية والدرجة والنضج، بل انها في كل مرحلة مرحلة تتوزع موضوعيا بين ما يعتبر فيها رئيسيا باستقطابه للبقية وتهيوءه للحل، وما يعتبر ثانويا، بمعنى عدم امكان حله قبل حل الرئيسي ، وسهولة ذلك بعد حله .

ت ـ وفضلا عن ذلك فهو يعلمنا ان بعض تلك التناقضات الثانوية ، ولسبب طاريء وخارجي غالبا ، قد تصبح رئيسية ، والرئيسي يصبح ثانويا

بصفة مؤقتة ، وحينئذ يجب تغيير التوجه من طرف الذات الفاعلة في التغيير حتى تتلاءم ومعطيات تبدل الواقـع .

ث ـ وهو ينبهنا الى استحالة حل تناقض ثانوي قبل الرئيسي ، أو حل تناقضين في نفس الوقت بأية طريقة كانت . ذلك أن التناقضات هي في الواقع الملموس ، وهي من ثم ذات طبيعة موضوعية وليست من اختراع الذهن . ولذا فعلى وسائل حلها أن تستمد من نفس الطبيعة الموضوعيـة . اننا لا نستطيع تعليم المشي للرضيع مثلا ، أو نجمع في الآن معا بين النوم والعمل ، اما اذا أردنا « اعادة » حل تناقض سبق حله ، كما لو عمدنا الى طالب جامعي وادخلناه مسيدا لتعليم الابجدية ، فسنبعث الناس على الهـزء منـا والتنـدر .

ان بعض مواطنينا ، سامحهم الله ، يابون سوى الاشاحة بانظارهم عن كل تلك المنجزات الفكرية التي دفعت البشرية من أجل الوصول اليها الكثير من التضحيات والضحايا ، مصرين عى رؤية وممارسة ذاتية تنتج افكارا من النوايا بدل الواقع، والبرامج من الارادات بدل الحاجيات الموضوعية، مقدمين هكذا ، ومن عندية أهوائهم أو بايعاز من غيرهم ، التناقضات الثانوية على الرئيسية ، التناقضات في صفوف شعبهم على مستوى اللغة أو الثقافة الروحية ، على التناقض الرئيسي الذي يستقطب في حقيقته مجموع طبقات الامة الوطنية من جهة ، والاستعمار الجديد وعملائه المحليين من جهة اخرى. وفاشلا ما يحاولونـه ، فوق أنه مضر أبلغ الضرر بالقضايا نفسها التي تمثل في الجوهر الدوافع العميقة لاغلبيتهم ، لعل بعضهم الاخر ـ وهو قليل ، لكنه قيادي ـ فهو يعرف [illegible] نظرا لوضوح مصالحه اللاوطنية ، ويفهم العلاقة المباشرة التي تربط تلك المصالح الى منعكساتها على مستوى الافكار والخط السياسي لممارساتهم .

في الحديث التالي سنحاول طرح الموضوع للنقاش عامدين الـى كبـر الطوق المريب والمخيم على الممارسات السرية لهؤلاء . مسلطين بعض الضوء الكاشف على الاقبية المظلمة والتحركات الخفية والمريبة التي سقط فيها بعض من مواطنينا ، مهتمين أولا : بدفع « المحايدين » بصمتهم لتحمل مسؤولياتهم في قضية تهمهم وتساهم في تقرير مصيرهم . وثانيا : بنقد ممارسات بعض الهيئات والمؤسسات الممارسة على الصعيد السياسي أو ما يتصـل بـه . وثالثا : بتنوير بعض من اولئك المنغمسين في مستنقع « الجريمة » بنوايا حسنة فعلا ولكنها زائفة ما دامت بدون وعي .

وانني بهذه المبادرة اقدم طريقا أخرى غير أسلوب النعامة أو التحايل والمناورة الذي يفضله البعض عوض المواجهة ، وهم بذلك لا يفعلون اكثر من تاجيل ما هو حتمي الوقوع ، والفرق في المواجهة بين اليوم وغدا هو اننا

ستضيع فرصة ايقاف الاجرام عند بداياته وقبل استشرائه كما وقع في فلسطين سابقا وفي لبنان اليوم .

ثانيا : خصائص عامة :

تتسم تلك التيارات أعلاه ، على تعددها وتنوعها ، ببعض السمات العامة والمشتركة، يمكن استشفافها على عدة مستويات وأصعدة يمكن التركيز من بينها على :

1 ـ الصعيد الايديولوجي السياسي :

1 ـ ان من أهم قوانين الصراع الاجتماعي والسياسي في التاريخ البشري والذي يتجلى واضحا في تاريخ وطننا الحديث ، أن التيارات الطفيلية اجتماعيا وسياسيا ... عادة ما تجد مجال نشاطها الارحب في الوقت الذي تكون فيه قوات الامة الاساسية مستقطبة الاهتمام لقضية مركزية وتناقض رئيسي تتوزع حوله الآراء وتتصارع الخطوط. فتنعزل تلك التيارات بنفسها عن كل ذلك ساكتة عنه ومنشغلة بتوسيع وتعميق تناقضاتها الثانوية الخاصة في غفلة عن الزمن وعن الناس .

2 ـ ان مثل هذه التيارات ، كذلك ، عادة ما تخفي نواياها واهدافها السياسية ليس عن الطرح العلني في الساحة العامة وحسب ، بل وحتى عن نفسها كذلك في صيغ ايديولوجية ملتوية ومتلبسة ومرنة وبشكل تمتنع معه عن الوضوح في طبيعتها وفي مواقفها وفي تحالفاتها ، مفضلة ـ وبشكل لا واع ولا ارادي كما هو قانون كل ايديولوجيا ـ طرح نفسها بوجوه اخرى روحية وثقافية ـ فنية ... عامة جدا وباهتة الملامح في بداياتها طبعا ،

3 ـ وان عدم الاعلان عن موقف أو هو[illegible] سياسية عامة وشاملة وصريحة ... لا يعني البتة عدم وجودها بالاطلاق عند أمثال هذه القوى وبالاحرى عدم امكان وجودها ، بل على العكس تماما : فهناك من جهة آراء ومواقف مشتتة متفرقة ، وبالخصوص حول القضايا الخارجية ، والتي اذا عكستها نحو الداخل فانك لا بد واجد معاني ودلالات . وهناك ، من جهة أخرى، وفي مواقفهم الخاصة من تلك التناقضات الثانوية التي يركزون مجهودهم على طرحها واستثمارها ما يمكن اعتباره شبه محيط ومناخ سياسي يقبل العديد من الإستخلاصات والاستنتاجات ، وفوق ذلك وأهم منه انمواقفهم السياسية العميقة تستمر مضمرة مبطنة بشكل لا واع في القاعدة وشبه واع في القمة لا ينتظر سوى سنوح الفرصة في الزمن والمكان ليعلن عن نفسه ممارسة بعد تقوية التنظيم واتساع التأثير في المحيطين الاجتماعي والثقافي وربما كذلك في انتظار الضوء الاخضر يأتي من المراكز الخفية التي تحرك الخيوط .

4 ـ ان مثل تلك الحركات غالبا ما تأتي اثر اختفاءات سياسية كبرى على مستوى الأمة جميعها أو على مستوى بعض طبقاتها ، وهي بذلك تظهر كرد

فعل سلبي للفشل عايشته في ارضيته ، وكجواب مزيف على اسبابه ودواعيه ، وكمشروع وهمي لطريق بديل لـ « النجاح » يعوض طريق الاخفاق السابقة .

5 ـ وحول الموقف من التناقض الرئيسي الذي تعيشه الامة فهي تكتفي بالصمت عادة مع نوع من الايحاء لكل الاطراف أنها معها ، تاركة « الاختيار » لاتباعها باتخاذ الموقف الملائم لكل شخص، وهي بذلك تضمن، من جهة، تخفيف وضع الغموض المفيد لها، ومن جهة اخرى، استمرار الاتصال شبه العضوي باطراف الصراع الاساسية ، رابحة بذلك رضاهم ، أو على الاقل مسالمتهم ، ان لم يكن ـ كما هو حاصل ـ تشددهم التحالف معها ، وضمان تاييدها بدون طائل .

6 ـ من ظواهر تلك الحركات شدة تعصبها لما تعتنقه من آراء وتحليلات ومواقف الى درجة الرغبة في الموت من اجلها والمقت الشديد ، ليس لكل ما و « من » يتناقض معها فحسب ، بل وكذلك لمن يخالفها ولو في بعض من اهدافها ووسائلها ، مغلقة بكل ذلك وغيره اسماع اتباعها وابصارهم عن الالتفات صوب اية جهة غيرها ولو على سبيل الاطلاع والتعرف . وهذا يعتبر من اهم ما يساعد عناصرها على التماسك الداخلي والتوازن الذاتي ما داموا يمتلكون « الحقيقة » منذ الانطلاق ، ويحملون فكرة مسبقة عن الآخرين ، لا تقبل ولا تحتاج تعديلا من اي مصدر كان .

ب ـ على الصعيد التنظيمي :

1 ـ مثل هذه التيارات التي سرعان ما تصبح حركات شبه منظمة بشكل عفوي وتلقائي تستفيد كثيرا في تطورها من طبيعتها العامة والمرنة المنوه بها أعلاه ، وهي بذلك تنتشر في الفضاء كالوباء بوتيرة متسارعة مرتبطة في اطارها بتصاعد وتعمق التناقض الرئيسي على مستوى الامة . [illegible] ما يظهر من أول وهلة كنقص بنيوي في هياكلها وأجهزتها غير المنظمة وغير المستفيدة من المؤسسات الشرعية ، يمسي ميزة ملائمة لنشاطها شبه السري .

2 ـ ومثل هذه الحركات عادة ما تأخذ لنفسها طابعا شعبيا ، مستثمرة ومبتزة بؤس الشعب ، مركزة على أكثر قطاعاته قهرا ، ومحورة اهتماماته وحاجياته الحيوية ، والتي لا يمكن ان يجد لها حلا فعليا خارج ساحة الصراع السياسي الطبقي ، الى نفخ اصطناعي لهمومه الثانوية وتناقضاته الهامشية .

3 ـ وهي كذلك لا تكون متجانسة بطبيعتها ولا مركزية التنظيم والتوجيه ـ في الظاهر ـ على الاقل ـ وهذا ناتج عن طبيعة تكوينها المتناقضة من حيث اصولها الاجتماعية . من جهة ، ومن جهة اخرى بسبب تعدد اهدافها السياسية بتنوع قيادتها وموجهيها . وهذا الوضع ـ على سلبياته في الظاهر ـ يلعب بالنسبة لذيوعها وانتشارها دورا هاما مستفيدا من تعدد المراكز المقررة

والمبادرة ومن غموض الاهداف الحقيقية كذلك ... بما يسمح لكل « غضو » بفهم الحركة بحسب ما يحلو له وما تزينه له « اهواؤه » ومصالحه الذاتية المغلوطة والفجة الى حد الانحطاط الى مستوى المساومات النفعية الصغيرة والدنيئة ...

4 ـ وعلى مستوى العلاقات شبه « التنظيمية » والتي تمثل لحمة كل هذه الحركات ، فهي الى جانب ميتافيزيقا الاهداف على مستوى الفكر ، تكتفي أو تركز على أسلوب العلاقات الذاتية الخاصة ، متغذية من موروث المؤسسات التقليدية التي يقع احياء الميت منها : عائلية ، عشائرية ، قبلية ، أو المؤسسات الحرفية ، وأحيانا فهي تستغل مؤسسات « عصرية » أسست منذ الاول لاهداف غير شعبية ، مثل بعض أنواع العلاقات الادارية ضمن الدولة .

وهكذا فالطبيعة الرجعية للأهداف تستدعي بالضرورة رجعية في الوسائل، وبذلك تصطنع عمليا شبه عصابة تتبادل فيما بينها أنواع المصالح والمنافع التي يحتاج فيها البعض الى البعض ، وفي هذا الاطار نجد الكثير من حالات الانسياق مع التيار والانغمار فيه تابعا بالاساس بالنسبة لبعضهم من تحقيق مصلحة طارئة أو تكريس منفعة قديمة .

5 ـ ان هذه التيارات غالبا ما يحضر لها وبها ، ويكون مصدر تمويل اولي مراكز خارجية أجنبية عن الوطن ، تصطنعها كنقط تشويش وبلبلة على الصراع الوطني ـ الاجتماعي ، وطوابير احتياطية لما قد يجد من أحداث تحتاج الى أنواع عدة من التدخل ، أفعلها [redacted] هو الصادر من الداخل . ان هذا الوضع لا يعني تماما ان [redacted] أياها ، وفي [redacted] أحيانا ، يكون على علم بالخيوط الخفية المحركة ، فكيفية [redacted] لفعاليتها الناتجة بالذات عن قناعة وهمية لـ « الاطر » بالباعث الذاتي الداخلي لتحركهم . وهي القناعة التي تبررها لهم بالفعل ، وفي ظاهر الاحوال ، مختلف انشطتهم وقضايا تحركهم والعناصر المتعاطفة معهم .

ثالثا : الخلفيات ـ الاسباب :

وراء الظاهرة الموصوفة أسباب ، وهي ليست دائما ولا اساسا من طبيعة ذاتية وشخصية ، بل على العكس : فجذورها تكمن في الموضوع نفسه ، ساحة الصراع الوطني : الاجتماعي والسياسي والثقافي ... ولان وسائل الحل والمواجهة تأتي عادة بعد التعرف على الاسباب ، فاننا سنحاول البحث عن بعض ذلك من خلال مراجعة نقدية لـ « الواقع » في امتداده وفي عمقه :

1 ـ ليس يكفي لحل تناقض رئيسي مجتمعي : سياسي أو ثقافي في أمة ما وفي مرحلة ما ، ان يكون مستقطبا لمجهود الجماعات وصراع الطبقات، ان هذا عادة ما يحدث وبشكل تلقائي وعفوي من مختلف الاطراف ، اذ ان

موضوعية للتناقضات وحدها تستطيع ان تتكفل بذلك ما دام الصراع الاجتماعي ليس ممارسة اختيارية او اعتباطية من صنع الذوات... المشكل لا يكمن اذن في هذا الجانب، بل اساسا في طبيعة الطرح وأوجه التناقض التي يقع الدخول منها اليه وكذا ـ وهذا مهم ـ الوسائل التي تستعمل لحله . فاذا وقعت عيوب واخطاء في هذا الصدد لسبب او لآخر ، فانه عادة ما تنعكس ، ليس فقط على مستوى ممارسات الصراع ونتائجه التي تطبع بكثرة الاخفاقات والحيرة والتذبذب ، بل وكذلك ـ ومع التحول النوعي للاخطاء بتدرجها من المستوى التقني الى التاكتيكي الى الستراتيجي ثم الى المبدئي ـ فهي تسمح ، بل وتشجع ، على بروز التناقضات الثانوية وطغيانها في مرحلة ما على الرئيسي نفسه ، حيث ينتشر الظن بان اخطاء الجماعة في الصراع غير آتية من مفاهيمها له ووسائلها المستعملة في حله ... بل ، اما من عدم صلاحية ذلك التناقض للطرح او لثانويته او / ولعدم قابليته للحل . وفي ترجيحي الشخصي ان ذلك الباعث اعلاه يكمن كسبب رئيسي خلف اكثر هذه التحركات الهامشية اليوم في بلادنا ، التي اخاف الا تعود « عزيزة » عند الجميع بنفس المعنى غدا .

2 ـ والدولة من جهتها ، بخلفيتها الطبقية المتحالفة وارتباطاتها الخارجية ، وباجهزتها ... لها ضلع كبير في المسؤولية ، ليس بالمعنى التاريخي العام، فذلك شيء مفهوم، ما دامت كل مشاكلنا تابعة اساسا من طبيعة سياستها وممارساتها ، وانما نقصد المسؤولية المباشرة والمعاينة . وظواهر ذلك متعددة سنقتصر منها على الاهم :

ا ـ فعلى مستوى السياسة الاقتصادية والاجتماعية يمكن اجمالها ، وبعد 23 سنة من انتصارنا في « الجهاد الاصغر » في ما يلي :

ـ تفاوت صارخ في الفروقات الاجتماعية الطبقية تظهر على مستوى الدخل في واقع وجود تناسب 32/1 بين ادنى واعلى الدخول . ان هذا الوضع، والذي من اهم اسبابه ظاهرة المعمرين المغاربة ، وسياسة مغربة الاستعمار ، وعتو بورجوازية الدولة في استغلال نفوذها الاداري والاقتصادي ... الخ ، قد ادى الى نمو متسارع للطبقات الدنيا المدقعة على مستوى الكم في البادية ومدن الصفيح (الهجرة الناتجة عن سرقة الارض من الفلاحين) ، وكذا الى تعمق مأساتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وهذه الاوساط تعتبر اليوم من اهم مزارع انتشار تلك التيارات الهامشية ، اذ ان واقعها المادي يساعد في تبنيها لتلك الافكار .

ـ تكريس اوضاع التفاوت الجغرافي ـ الاقليمي في بلادنا ، وهو الارث الاستعماري الثقيل جدا ، والذي قسم المغرب الى مغربين ، نافع وغير نافع ، تعمق اليوم بشكل بشع ، واصبحنا كما لو اننا في اوطان ومغارب وليس في وطن مغربي واحد على جميع الاصعدة ليس ابسطها ان يجدد البعض ماء مسبحه

يوميا، وان لا يجد آخرون ماء للشرب الا في مستنقعات يشاركون فيها حيواناتهم، وبقية الصورة المأساوية يعرفها الجميع ، وخصوصا الذي يعاني منها ...

ان هذا الوضع ، هو بالفعل القانون العام تقريبا لكل المجتمعات الرأسمالية وشبه الرأسمالية . غير أن امتداده وعمقه في بلادنا وصل حدا قصيا ، وهو بالذات الميدان الذي يعتبر فسيحا وممراحا لنمو وانتشار تلك التيارات أعلاه ، وبالخصوص منها الاقليمية ، حيث تستطيع أن تجد في « الموضوع » ما يبرر اطروحاتها الايديولوجية الذاتية ، أو لنقل كذلك بالعكس ان تلك الشروط الموضوعية هي التي تفرز ، تلقائيا ، هذه الظواهر المرضية الذاتية .

ب ـ انه لا يمكن التغاضي عن كون الدولة المغربية لم ترث فقط أجهزة وعقلية ووسائل ممارسات الدولة المغربية التقليدية (المخزن) بكل خصائصها السلبية .. بل لقد حافظت ، اكثر من ذلك ، على أشكال تدجين وتهجين المرحلة الاستعمارية التي عملت من جهتها ، اكثر من الحفاظ على دولة المخزن ، على تكييف وظائفه السياسية والاجتماعية... للتلاؤم مع ما استحدثه من مؤسسات الادارة الاستعمارية ، وبذلك أضفنا الخل الى الخميرة ، وتخلف لنا مخلوق مشوه يمت بجذوره الى زمنين ومكانين مختلفين : الماضي الاقطاعي ـ القبلي المغربي ـ الحاضر الرأسمالي ـ الاستعماري الاوروبي .

من آثار ذلك بالنسبة لاوضاع الاستقلال أن وقع أحيانا شبه تطابق بين أجهزة الدولة الادارية المقررة ... وعناصر اقليم بعينه ، أو مع التجاوز، نقول أقاليم بعينها ، وكذا نوع من تقسيم [illegible] مع تفاوت في مستوياتها وأهميتها ، بين [illegible] فاختلط من كم [illegible] الخلط الى اليوم مستمرا المشكل الطبقي بالمشاكل الاقليمية و[illegible] ذلك سمحا اليوم للمستفيدين من الغموض والتغميض بنشر المغالطات والخداع على الناس ، واجدين في « الوقائع » المقدمة بشكل مبستر ما يؤكد دعاواهم الايديولوجية الباطلة .

الا أنه ، وفي جميع الاحوال ، نجد أن ذلك الدمج بين أجهزة الدولة العليا وبورجوازية اقليم أو أقاليم بذاتها ، قد سمح للآخرين بالبروز وفي أيديهم « حجتهم » .

ت ـ وعلى مستوى واقع **الحريات الديموقراطية** في بلادنا فقد وصل التردي درجة اصبح معها الاضطرار الى التستر الفردي والجماعي في ممارسة ابسط الحقوق الخاصة والعامة ظاهرة شاملة تقريبا ، هذا الوضع مس بصورة خاصة طبعا الطلائع الوطنية الشابة والمتنورة فكريا وثقافيا من مختلف مراحل الزمن المغربي المعاصر . ومن هذا الواقع بالضبط يجب أن نفهم ارتباط بروز هذه التيارات زمنيا بمرحلة العنف الرجعي العام الذي

شمل الوطنيين في النصف الاول من السبعينات . ان ارغام تلك الاصوات من المؤمنين بالقدس قيم الشعب على الصمت بين جدران الزنازن او الاكتفاء بسماع صداها الآتي من بعيد ... هو الذي سمح للأصوات الكافرة بقيم العقل والحرية والتسامح .... او بقيم الوطنية والعروبة ،،، بأن تجتر غثاءها دون ان تجد ـ الا قليلا ـ من يعيدها الى الصواب ويصحح من انحرافاتها ويحد من غلوائها .

ث ـ ان من أهم المرتكزات الايديولوجية لبنية الدولة المغربية في حديثها « الواعي » عن نفسها ، كونها دولة ليبرالية ترتكز الى مبادىء : الحرية .. فصل السلط .. الخ ، ومن دلائل ذلك في منطوقها عن نفسها انها من القلة القليلة في العالم الثالث والبلاد العربية خصوصا التي ليست لديها وزارة لـ « الارشاد القومي » تتكفل بنشر ايديولوجية معينة ولا مادة بنفس المعنى من مقررات وبرامج التعليم والاذاعة ... الخ ، ولو تحققت تلك الادعاءات بالفعل لكان ذلك من فضائلها حقا . لولا أنه مغالطة ليس غير ، فدولتنا ، كغيرها ، ليست محايدة ايديولوجيا على الاطلاق ، ومن اهم مصادر فكرها : الدين ، **المقروء قراءة خاصة** والمقدم وفقها للجماهير . ذلك أن الادعاء بأن الدين الاسلامي هو دين الجميع في الامة لا يقوم مبررا لفرض الفهم الخاص بالدولة وطبقاتها على بقية الطبقات في الامة ، ان النص الديني ، كاي نص آخر ، لا يقرأ نفس القراءة مع اختلاف القارئين ، ولا مع اختلاف الزمان والمكان لنفس القارئين، انه يخضع اذن لنوع من التأويل مصدره طبيعة المصالح الخاصة بكل مؤول ، وهي التي توجه القراءة والفهم ، وهذه الحقيقة ليست جديدة ولا تهم فقط بالنسبة للتاريخ العربي ـ الاسلامي منذ صراع الامام علي مع السلطان معاوية حتى الخميني مع الشاه ... بل هي شاملة لكل تاريخ الحضارة البشرية ...

الدولة العصرية ، والليبرالية حقا ، ابتعدت أكثر فاكثر ، ومنذ الثورات البورجوازية في أمريكا وانجلترا ، وقمتها في فرنسا (1789) ، عن أي تدخل في الشؤون الدينية بالتأويل او بغيره ـ أما دولتنا ـ ويجب قول هذا اليوم ـ فقد كانت هي أول مبادر لاستغلال الدين في أهداف سياسية (في العمق طبقية) : فماذا تركت لغيرها أن يفعل ؟ فبسلوكها (غير الليبرالي مطلقا) شرعت للآخرين سبل ممارستهم التي ستعود عليها بالسلب أكثر من غيرها ، ان لم يكن قبل غيرها . والمثال الايراني ما زال ماثلا أمامنا يشهد (رغم تناقضات الثورة التي سمحت ببروز ايجابيات مهمة) .

ان استخدام الدولة للدين المؤول يتجاوز المؤسسات الدينية الرسمية (المساجد ...) الى وسائل الاعلام الجماهيرية الى التعليم نفسه في الكثير من مواده وأهمها « التربية الاسلامية » التي تأخذ حصة الاسد في الابتدائي ،

واتسعت الآن لتشمل مؤسسات التعليم العالي فضلا عن الثانوي طبعا .

ج – وأخيرا ، وليس آخرا بحال ، فاننا لا نستطيع أن نتناسى الدور السلبي ، القاتل والمدمر ، الذي تلعبه انواع ومؤسسات **الثقافة السائدة** بشقيها : الرجعي القديم، والجديد (الامبريالي) . ان وطننا ، وبعد 23 سنة من الخروج السياسي الرسمي للاستعمار ، ما زال في حالة استعمار ثقافي – لغوي بشع . وربما يكون أقسى علينا من السابق ، ما دام يفرض نفسه بوسائل محلية وعناصر « وطنية » (المرجع هنا هو أوراق الحالة المدنية) ان الأنسية العربية عموما والمغربية خصوصا ما زالت تصارع عن نفسها لتجد مكانا في وطنها أمام أكتساح قيم ثقافة الحفريات الاثرية أو ثقافة الغرب الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية العفنة بلا انسانيتها وماديتها الفجة .

وبالنسبة للمسالة اللغوية ، فكلنا يعرف أن لغة الشعب العربية ، ومن ثم مشاعره ومطامحه ليست جريحة وحسب ، بل وانها لتتعرض يوميا للذبح في التعليم والمعاملات العامة المختلفة (ادارية ، اقتصادية ...)

في مثل هذه الظروف يحتاج المرء الى الكثير من الغباء وعماء البصيرة اذا لم يلاحظ :

1 – ان العربية كلغة قومية ما تزال مقموعة بضراوة وليس الامازيغية فقط كلغة محلية .

2 – ان الاغلبية الساحقة من المتحدثين اليوم – كما بالامس الاستعماري القريب – عن مشكلة الأمازيغية (او الشلحة) – متخرجون من المركز الاستعماري القديم – الجديد في فرنسا .

3 – وان التوجيه الاساسي لشعب اللسانيات والعلوم الانسانية ... هنالك يسير في اطار التركيز على [illegible] في العالم الثالث ، حتى لتكاد كثير من مدارس اللسنيات الحديثة تصبح بالفعل « علوم [illegible] » اليوم ، اذا كانت الانتروبولوجيا بالامس قد استخدمت لتبرير الاستعمار القديم .

ومن الزاوية الاخرى ، فان التركيز المتطرف على استيراد واقتناء آخر تقاليع القيم والمسلكيات والجماليات (الازياء ، المعمار ، مثلا) الاوروبية ، يجر من جهته الى تطرف مقابل يتشبث (بفهمه الخاص والمؤول) باعرق ما تزخر به الامة من تراث واثريات الماضي ، قافزا بخطوة واحدة على عوامل الزمن وكل مراحل التاريخ وكأننا نعيش وما نزال في القرن الاول للهجرة .. فيفقد معناه كل شيء في الماضي والحاضر جميعا ، وتختلط الاوراق ببعضها (الدين والسياسة ... مثلا) ، ولا يعود هناك مقياس أو دلالة لاي شيء ، وحتى ما كان نبراسا مضيئا في تاريخنا الفكري والسياسي يمسي رمادا هامدا عند هؤلاء . وتلك هي النتيجة الحتمية لكل فلسفة تقوم أساسا على ردود الفعل فقط : تطرف في الموضوع ، وانتحار في الذات .

لا يعتبر كل رجوع الى الماضي السحيق او المتوسط ... سياسيا او فكريا ـ ثقافيا وروحيا ، وكرد فعل أمام واقع سالب لاهم مقومات الشعب والوطن وهي شخصيته ... ممارسة رجعية في كل حال ، ان الامم المقهورة (ومنها المغرب في مرحلة الاستعمار القديم) عادة ما تعمد الى تحصين نفسها (مؤقتا) في التقليد ، درءا لخطر اجتثاث شخصيتها القومية المستهدفة من طرف الثقافة الاستعمارية المعتدية . غير أن هذا المسلك يتسم لديها عادة بالمرحلية من جهة ، وبالتركيز على اهم قيم آبائها في الصمود والاعتزاز القومي واسترخاص التضحية من أجل الوطن ... من جهة ، وكذلك الانتباه الى تناقضات العدو والبحث فيها عن وسائل للنضال ضده ، والبحث أكثر من ذلك عن الاسباب التي سمحت باستقوائه ومقابلها الذي كرس ضعف الامة من جهة أخرى ... الخ ، الخ ،،،

مجمل هذه الخصائص . وغيرها ، لا نجد منها شيئا عند اخواننا .

3 . 1 ـ البورجوازية المنعوتة عادة بـ « الوطنية » ، بفئتيها الوسطى والصغيرة ، اختارت في المرحلة الحالية ، وأمام الظاهرة ، الركون الى الصمت، بمنطق (كم من حاجة قضيناها بتركها) متجاهلة بذلك ، وعن عمد ، واقعا ماثلا يزداد استفحاله وخطره ، الا من بعض التفاتات خفيفة وغير مباشرة بين الحين والآخر . فما هي بواعث هذا التصرف :

أ ـ ان بورجوازيتنا ، وبالخصوص منها المتوسطة وفوق المتوسطة ، قد ساهمت بقسط وفير في تكريس الكثير من أوضاع القهر والشذوذ التي تتغذى منها اليوم تلك التيارات ، سواء على مستوى التفاوت الطبقي الصارخ أو الاقليمي أو غير ذلك .

ب ـ ان ارتباطات كثير من فصائلها بالمراكز الاجنبية التي يعود لها الفضل في تنشئتها ، يضعها في مواقع لا وطنية ومسلكيات لا شعبية ، بل واستعمارية . فكيف سيتأتى لها مواجهة منطق (لا وطني) بمنطق من نفس النوع دون أن تحس هي ، ويحس معها الناس ، بالتناقض .

ت ـ وان الطبيعة اللامبدئية ـ الانتهازية لخطها الفكري ، القابل للتعامل مع الكل بالقياس فقط الى ما تقتضيه مصالحها الضيقة والانانية في كل لحظة لحظة ... تمنعها من امكانية المواجهة لمثل هاتيك التيارات ، وتدفعها ، بالعكس ، الى الرغبة في احتوائها بتشذيب زوائدها وتقليم اظافرها أو بالاقل توجيه عدوانيتها نحو خصم آخر ومحاولة الاستفادة من « جماهيريتها » في اللعبة الديمقراطية .

هذا التنافس الخفي (الآن) بين فصائل البورجوازية على اكتساب ود ومصالحة تلك التيارات أو على الاقل تلافي هجوماتها ... يزيد من جهته ، ومرة أخرى ، في تقويتها أكثر واكتسابها شرعية (الامر الواقع) .

ج ـ ومن جانبها ، فان البورجوازية لم تتورع ، وفي كل تاريخها الحديث

والمعاصرة، عن استثمار الدين سياسيا هي الاخرى، وبذلك اعطت اكبر الدليل وافتواه على مدى عجزها عن تكوين وتدعيم فكرها الخاص والمستقل عن مناهج وأساليب الفكر الاقطاعي . وحتى في ميدان الصراع على مستوى الفكر الديني لم تكن صادقة كصدق أمها الاوربية على عهد لوثر مثلا ، فتتجاوز مستوى الابتزاز السياسي الآني للمقولات والمفاهيم والمسلكيات الدينية الموروثة ، الى مستوى تطوير العقيدة والتشريع وتقديم تصور ورؤية جديدة للعبادات والاخلاق الدينية ، الا في حدود ضيقة جدا ، وعلى اثر مبادرات للدولة نفسها غالبا، والتي فرضتعليها الظروف أحيانا أن تكون متقدمة في هذا السبيل على البورجوازية ، في المعارضة نفسها .

3 . 2 ومع ملاحظتنا للبنية الخاصة باقتصاديات البلدان التابعة ، نجد خصائص التفكك وعدم التوازن في النمو وخلل التكامل الداخلي ... الشيء الذي ينتج عنه ارتباطات خارجية لمختلف القطاعات وبشكل متفاوت في القوة والضعف ، حتى ليمسي الارتباط بين بعض تلك القطاعات او الاقاليم (أو الاحياء أحيانا) مع المراكز الاستعمارية ، أقوى من ارتباطها بمحيطها الداخلي الخاص نفسه (من الصعب مثلا ان نجد أي نوع من العلاقة بين حي الوازيس بالدار البيضاء وكريان باشكو باستثناء استيراد الخادمات !) .

يتخلف لدينا ، من ضمن ما يتخلف عن كل ذلك ، تكوين بورجوازيات رأسمالية ذات طابع اقليمي تتنافس فيما بينها على هذا المستوى ، وكل منها يحاول استثمار ما يمكن أن تقدمه له [illegible] ومجاله الاقليمي ضدا على الآخر . وبذلك تفقد آخر ما يمكنها [illegible] من الحس الوطني ، وتصبح [illegible] الشيطان النعرات العنصرية الاقليمية ... محاولة بذلك ـ ضمنيا [illegible] غضبة الشعب عليها ، حيث تقدم له نموذجا لصراع مزيف بين أقاليم وجهات ، وليس بين طبقات ، صراعا عموديا لا افقيا كما هي حقيقته .

تحققت فعالية هذا المنحى ، خصوصا ، لدى بورجوازيات الاقاليم (غير النافعة) حين تتقدم لمن تستغلهم بصورة التاجر المظلوم والمغلوب على أمره (وهذا حق ولكنه ناقص) والمحتاج الى ما يدعمه من (اخوانه) في الاقليم ، مستهدفا تعويضهم عن المشاعر الوطنية والطبقية مشاعر ومطامح وأفكارا عنصرية ـ اقليمية مقيتة .

بالمقابل ، يرد الآخرون على النغمة بما يوازيها أو اكثر ، بهروب الى الامام متمثل في عنصرية امقت ، أو بتجاهل ونفي تام للمشكلة او بتمويل للمؤسسات والتيارات التي تدعو الى احتقار الدنيا والمادة (المال) ، مقدمة الضحية بوصفه جلادا (عمر بن جلون) ، مخفية بعورتها الخلفية الجلاد الحقيقي للجميع ، بمن فيهم هم أنفسهم : الاستعمار وحلفاؤه .

ان ما لم يقل ، ولكنه مبطن وضمني في كل مصادر تفكير وسلوك مجموع

أولئك ، هو أن لا تغيير ولا صراع ولا تصور لافق خارج قوانين وحتميات « الوضع الراهن » ، وتلك نقطة المقتل ، اذ ما الداعي الى هذه « القناعة » الباطلة ، ان لم يكن وحدة مصالحهم جميعا رغم تناقضاتهم في الظاهر .

3 . 3 ـ وقبل الانتهاء من الحديث عن موقف هذه الطبقة وعن دورها ، لا يجوز أن نغمط بعض مثقفيها حقهم من المسؤولية ، ذلك أن التوسع والنمو المتسارع احيانا لهذه الفئة نتيجة التعليم خصوصا ، والمحايث للتوسعات الاقتصادية الطارئة (كما في 75 مع الفوسفاط ـ دولار) ـ يخلق مشاكل بداخلها ، اذ انه برغم ما تفتحه تلك التوسعات لهذه الفئة ـ اكثر من غيرها من فئات الشعب ـ من فرص الارتقاء و « تحسين الوضعية » ، فان المجال يبقى ضيقا عن استيعاب رغبات الجميع وبنفس المقدار ، فيستفيد البعض اكثر عند « اقتسام الغنيمة » ، فيما يتضرر البعض الآخر ، وهو حينئذ لن يصمت عن (الغبن) ، فيثير الضجيج والبلبلة على (ضيزى) وقسمته (غير العادلة) . وحين لا يجد مجالا لهذه الاثارة ضمن المؤسسات « الديمقراطية » القائمة (أحزاب ، نقابات ، جمعيات ...) فانه لا بد يؤسس لنفسه منتدى للتجمع أولا ثم للبحث عن صيغة ايديولوجية موافقة للحس الشتيت ولأم المتناقضات . وعن كل ذلك تتخلق أمثال تلك التيارات اعلاه ، التي لم تتمكن « أطرها » من أخذ ادارات ولا تفرغات متنوعة .. ولا حتى عضوية مجلس بلدي ... ولا حتى ، على الاقل ، من العمل في صحيفة تسمى ميثاقا أو مغربا أو ، أو ، أو ... الخ ،،

4 ـ نسجل هذا [illegible] الكثير ، ربما ، ممن سيتهمونه بالتحامل على جهات معلومة (المقدس) لجهة معينة ، اذا هو لم يتطرق بالنقد لفصيل جديد من فصائل الوطنية المغربية ، ألا وهو المنعوت عادة باسم : اليسار . واذا كان كل نقد يعتبر باطلا اذا لم يكن شاملا وجذريا ، فانني رغم مراعاتي للظروف الخاصة بهؤلاء الاخوان ، والتي في أقل نتائجها السلبية لا تساعدهم على الجهر وحتى الهمس أحيانا بمواقفهم .. وكذا لتشبثهم المشروع بحق الامتناع عن الدخول في نقاش مع غير المسؤولين في أقوالهم ـ وأنا منهم ـ ، سأضع حول ممارستهم ، وبالخصوص منها الجانب النظري ، بعض ملاحظات تتصل خصوصا بقضيتنا المطروحة ، دون أن يعني ذلك عند أي كان موقفا تجريحيا منهم وأحرى أن يكون مناوئا .

ان أهمية نقد هذا الفصيل ، بمختلف تياراته ، تأتي من ضخامة المسؤوليات التاريخية التي يضعها هو نفسه على اكتافه ، ومن ثم لكون أخطائه في هذا السبيل لا تنعكس عليه وحده في مستوى التضحيات بالحرية الشخصية أو الغربة عن الوطن ... بل وأساسا من ردود الفعل السلبية لدى تطلعات عريضة ، خصوصا من الشبيبة المتعلمة التي أحيت فيها أوائل

للسبعينات آمالا عريضة ومطامح في مستقبل سرعان ما خبا وميضه أمام إيمارهم التي استحالت عشواء عند البعض لكثرة ما تعرضت له من رعد حملته معها رياح الوقائع السافلة .

أ ـ بالرغم من أن عناصر هذه الحركة لم تبرز في الميدان الوطني بالجديد على الصعيد السياسي اساسا ، بل على صعيد تقديم فكر ورؤيـة حياتيـة وحضارية جديدة تعتمد الفكر العلمي والثقة في الانسان كمصدر وحيد لكل القيم ... فانهم لم يبذلوا مجهودا في هذا المجال يوازي (نواياهم) وأفعالهم السياسية . لقد طرحوا الى الساحة العديد من الشعارات والمواقف والممارسات السياسية ، تماما كما لو أن المحيط الثقافي ـ الفكري كان مهيئا لفهم وتطبيق تلك البرامج ، بصيغة أخرى فقد زرعوا قبل أن يحرثوا ، أما الماء فقد انتظروا ـ ربما ـ سقوطه من السماء على بذورهم . قدموا العمل السياسي على الثقافي، فوقعت ، من ثم ، اخفاقات ، بل ارتدادات ، من ظواهرها في الضفة الأخـرى ما نتحدث عنه باعتباره الانعكاس ورد الفعل السلبي على ممارسات خاطئـة لدى الطليعـة .

ب ـ ثم انه على مستوى محيط الفعل لم يتجاوزوا غالبا حقل الشبيبة ، والمثقفة منها بصورة خاصة ، فوقع نمو غير متكافيء بين هذا القطاع والقطاعات الواسعة من جماهير البوادي وأحياء الصفيح والاحياء التقليدية في المدن ، ممن يهمهم امر الدعوة اكثر من غيرهم ، ويفهمون (الحديث) على حقيقته وبمقياس الواقع لا باعتباره ممارسة كلامية أو جنى حلمية ، كما عند المثقفين الذين عادة ما يقرأون الواقع من خلال الكتب والنظريات والأفكار ... [illegible] من خلال الواقع .

انها حقا لمفارقة جلية ، لا يعنينا الآن البحث عن [illegible] بقدر ما يعنينا تسجيله أولا ، فرغم ان الحركة في الاصل هي حركة مثقفين متطلعين وطموحين طموحا شرعيا ، الا أنهم لم يستطيعوا في ميدانهم (الطبيعي) وهو الثقافة ، أن ينجزوا قدر ما حاولوه في الميدان الذي لم يحاولوا اشكاله الرئيسي المتمثل في الارتباط بالجماهير عضويا ، وبذلك أجلوا فقط أداء دين ثقيل ما زال عليهم أن يعملوا على المساهمة في حله ، اذ لا أحد غير من يسير على طريقهم يستطيع ذلك ، ومن أقساط ذلك الدين ما يطرحه موضوعنا من قضايا .

ت ـ وعلى فعل مستوى الفعل السياسي نفسه ، لا يسعنا المرور عليه دون اشارة ولو سريعة الى ما وقع فيه بعضهم من أخطاء « يسارية » قبيحة ركب عليها الكثيرون اليوم لتبرير عفشهم وتزيين سقط متاعهم . وكما كانوا شجعانا اقتحاما في عروبتهم حين أدوا عنها الثمن باهضا وبـدون تذمـر ولا استسلام ، فسيكون عليهم بنفس الروح المخاصة لقضية امتهم أن يتجاوزوها اليوم بنقد ذاتي شامل ، يعتبرون هم قبل غيرهم المأهلون تاريخيا لانجازه .

ث ـ واعتقد ، وقبل ختام هذه الفقرة ، أن من اهم اسباب الاخفاق المؤقت

واخطاء الماضي والحاضر عند هؤلاء ، ضعفه ما يبلوره من اهتمام للتناقضات الثانوية على المستوى الثقافي ـ الروحي ، وبالاخص للمسالة الدينية ، ان لم نقل انعدام الاهتمام مطلقا ، بل والجهل أحيانا بابسط قواعد وتقاليد ومؤسسات الدين ، مكتفين في أحسن الاحوال بالقراءة عنه من النصوص بدل الواقع المعاش ، وما دام الامر كذلك فسيستمر ابتعادهم عن شعبهم ويتعمق سوء التفاهم وازدواج اللغة . وفي مثل هذه الاحوال ، كيف يا ترى سيستطيع (عقل) أن يقبل امكانية تغيير واقع لا تعرف مكوناته وأطراف تناقضاته ... ؟ ! من المؤكد على أي حال أن السلطة ليست كذلك ، بل هي على العكس من ذلك .

ان هذا الفقر الذي يصل حد الادقاع في الاهتمام ومن ثم اغناء ثقافة شعبنا الروحية ، هو بالذات ، وكسبب من الاسباب الذاتية في صفوف الامة وطلائعها الشبابية خاصة ، الذي سمح لآخرين بأن « يملأوا » هذا الفراغ بكل ما يرتئه أبصارهم المريضة أو وقعت عليه أيديهم الخابطة أو ما قدم اليهم .... من خردوات الماضي المتخلفة والمقحمة زورا على أنها الدين الاصيل . تلك الخردوات التي لم تزد منظر الفراغ سوى تشوها ، وقبحا منفرا .

رابعا : وبعد : بمثابة خاتمة .

اذا كان يجوز لمثل هذا الحديث أن تكون له ، هو الآخر ، خاتمة بين الورق قبل أن يختم موضوعه على الواقع العيني ، فلن يكون ذلك سوى بالرجوع الى مدرسة التاريخ لنستقي منه الدروس والعظات .

فليست مثل هذه الظواهر المرضية في كيانات الشعوب بالجديدة ، لا باعتبار نفس المكان من العالم ، ولا باعتبار غيره من الاوطان في الحاضر ، حيث المثال اللبناني ماثل للعيان أمامنا لا بكل قساوة مأسيه وجدوله دماء ضحاياه من المشوهين فقط ، بل وبمواعظه ودروسه ايضا .

وبالنسبة للماضي المغربي فجميعنا على علم ، بدرجة أو بأخرى ، بأساليب المستعمر الفرنسي منذ دخوله بلادنا ، وبالذات منذ العشرينات ، من محاولته جر الشعب المغربي الى الانشغال بتناقضات ثانوية ، دينية ولغوية ـ اقليمية بديلا عما كانت الجماهير تخوضه ضده من صراع عنيف في المدن والبوادي خاصة . ان الملامح الميلودرامية لاحداث الماضي القريب ، حين كان بعض قواد الاستعمار وأمثال عبد الحي الكتاني من المشوهين هم الممثلون الرئيسيون في المسرحية ، نجدها مع بعض (التجديد) في الاخراج تؤدى مرة أخرى مع تقارب قوي في الظروف السياسية بين اليوم والامس . اذ أن من يدعي اختلاف المعطيات بين المرحلتين السابقة والمعاصرة اعتمادا على كوننا اليوم دولة مستقلة ، لا يستحق سوى رجم بالحجر على فساد ضلالته وذاتية رؤيته ، والا فما معنى الاستعمار الجديد الذي ما نزال خاضعين لقوانينه ، بل وما معنى مشكلة الصحراء التي يبذل الشعب المغربي من

ثمانه ثمنها أمام أطماع الاجنبي الغاشم .

ومالنا نذهب بعيدا ، وفي تاريخنا بعد مرحلة الاستقلال السياسي نفسه، ما يماثل بعض المماثلة وقائع اليوم ، فهل يجوز أن ننسى عدي وبيهي ، بل وأحداث الريف نفسها بكل ما يكتنفها من غموض ناتج عن الاستثمار اليميني لغليان شعبي افتقد طليعته .

اذا كانت هناك من فروق حقا بين الامس واليوم في هذا الصدد ، فهي تكمن بالذات في مستوى المواجهة الشعبية وكيفيتها بين المرحلتين ، حينئذ كانت فصائل البورجوازية الوطنية في مرحلة نشوئها ونهضتها ، وكانت مصالحها ما تزال على طرف نقيض مع مصالح الاستعمار ، فاتخذت ، عموما ، مواقف على جميع الاصعدة الفكرية والسياسية ... ذات بعد وطني ومضمون شعبي الى حد كبير ، فاستطاعت بذلك أن تهزم مخططات المستعمر وأن تحقق مع الشعب انتصارات باهرة ما زلنا اليوم نستمري طعم مذاقها اللذيذ ، في حين تكتفي البورجوازية اليوم بابتزازها في مجال الدعاية لخط يناقض ماضيها الوطني .

وان تراث ذلك الماضي المجيد هو الذي وقف معنا على عهد السنوات الاولى للاستقلال السياسي في مناهضة نعرات مماثلة حاولت أن تستغل ظروف قهر موضوعية لجماهير البوادي خاصة، ولكن ليس من أجل أهداف، ولا من منطلقات وطنية حقة ، بل عمليا لتفتيت الكيان الوطني وهو في حالة عنفوانه بالذات .

أما بعد سنة 1960 فقد تكفلت للقيادات الوطنية التقدمية ، عن جدارة ، بالاستمرار على نفس الدرب النضالي الوحدوي والشعبي ، مستقطبة ، خصوصا ببعض قادتها الاوفياء من أمثال الشهيد المهدي بن بركة ورفاقه ... طموحات الجماهير وارادتها التحررية في اطار التركيز على التناقض الرئيسي الاقتصادي ـ الاجتماعي والسياسي ... وهي قد نجحت ، على الاقل ، في الانفلات بهذا الشعب النبيل من أخطار الانجرار في مستنقع الصراعات الهامشية والتناقضات الثانوية في صفوفه ، رغم كل أخطائها أدت عنها الثمن من ذاتها في جميع الأحوال ، من الغربة عن الوطن والاهل الى التضحية بالحياة بالنسبة لمن ارتحل عند ربه شهيدا مرضيا

ومرة اخرى ، فها نحن اليوم نرى الظاهرة ـ المسخ تبرز من جديد .

واذا كانت بالامس تشكل تعبيرا شائها ورجعيا عن واقع موضوعي تعيشه اللغة الأمازيغية من جهة ، والثقافة الروحية للشعب من جهة أخرى ، فهي اليوم بالاضافة الى ذلك ، تعتبر تعبيرا ، كذلك ، عن مرحلة تفسخ وانحلال عام يشمل كل المؤسسات القديمة ، ويتمظهر في عدة مظاهر داخل الدولة وخارجها في المجتمع الذي ساهمت في اعادة انتاج كل انحرافاته

وتشوهاته ، محضونة في ذلك وموجهة من طرف الاجنبي .

هذه الحقيقة تجسد في نظري قانونا تاريخيا يقضي بزوال القديم بالتفسخ الذاتي اذا هو لم يجد جديدا يعوضه كبديل عنه . ان حتمية قانون الحركة والتقدم لكل شيء تفترض دائما صراعا بين قوتين : قديمة وجديدة ، فاذا لم تستطع الجديدة ، والتي تمثل الطرف الرئيسي في حدة المتناقضين ، ومن ثم العامل الذاتي المحرك للموضوع (التاريخ) ، ولسبب من الاسباب الداخلية أو الخارجية ، أن تنجح في كنس مؤسسات الماضي العتيقة ، وخاصة التي لعبت رجعية منها ، أو تغيير وظائفها أو تعديل عناصرها المكونة ... الخ ،،، الخ ، فان ذلك لا يوقف بحال قوانين الموضوع من الاستمرار في العمل عن طريق ما يمكن نعته بقانون « الانتحار الذاتي » للقوى الرجعية (مؤسسات ، أفكار ...) في انتظار دفعة ذاتية خارجية جديدة في محتواها ، لكي يزول على اثرها نهائيا التناقض القديم .

ان هذا هو في اعتقادي ما يجري اليوم على عدة مستويات في بلادنا وخارجها ، وهو ثاني فرق للظاهرة بين أمسها وحاضرها .

ان المغرب ، وفي عصر الثورات الوطنية ـ الديمقراطية والشعبية والآفاق الاشتراكية ، ما زال يتغذى كنظام اجتماعي ، وبفعل واقع التبعية الاقتصادية للاستعمار الجديد من الهياكل الموروثة للمؤسسات العشائرية والقبلية بل والعائلية والمراتب الدينية، في تعايش زائف مع أحدث المؤسسات الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية العصرية ، في تناقض متوتر وارتدادي غالبا ، يجعل كل خطوة تقدم تعقبها خطوات الى الخلف ، مثل حركة الموج أثناء الجزر .

اذا كانت قوانين التاريخ موضوعية وشاملة ، فان كل بلد يستطيع أن يرى صورة مستقبله ومصيره عند البلد الذي سبقه في السير على نفس الطريق. (هكذا قال مفكر بحق) ، وليس أمامنا نحن اليوم أقرب الى مثالنا في لبنان ، فهل يا ترى ستستمر أيدينا مغلولة حتى المطب ؟ من الاكيد أن سقوطنا سيكون حينئذ أعنف وأبشع من المثال اللبناني نفسه .

علينا أن نعرف أنه سواء لدواعي موضوعية موجودة في صلب أغلب أنظمة البلاد التابعة اقتصاديا واجتماعيا ، أو لدواعي ذاتية كامنة في مخططات الامبريالية ... نعيش في هذه المرحلة من تاريخ البشرية تناقضا رئيسيا بين ارادة شعوب العالم الثالث في الاستقلال والوحدة الوطنية والتقدم الاجتماعي... وارادة الاستعمار في الابقاء على الاوضاع التبعية التي تقتضيه الحفاظ على التفككات القومية والمزيد من تفتيت الكيانات الوطنية ، واليأس منها بصورة خاصة . وان الامثلة أمامنا لكثيرة ، سواء في افريقيا أو آسيا ، والآن في الوطن العربي ، حيث الردة الرجعية في لبنان تمتد حثيثا نحو سوريا والعراق، بل وربما مصر نفسها ذات الماضي الوطني السحيق في القدم .

ليست لدي أية رغبة ذاتية في أن أوجي لأي كان بصورة مظلمة وبائسة عن حاضرنا الوطني ، وأحرى عن المستقبل . انني على عكس ذلك أنفع الى غيره تماما ، ولكن بدون سذاجة في التفاؤل ، اذ أن أخطار المستقبل ، انطلاقا من وقائع الحاضر ، كثيرة ، وان ما أنجز من تقدم على صعيد تمتين للوحدة الوطنية ما زال ممكنا ضياعه .

وان للفرصة أمامنا ما تزال لمواجهة الودة ، خصوصا وان لنا في تاريخنا الحديث والقديم ما يدعم نضالنا من أجل التأكيد على مقومات وحدتنا الوطنية المنجزة خلال مسيرة من التاريخ طويلة ومليئة بالمآسي والدماء .

أما عن اخواننا أولئك فان أحسن كلمة تصدق فيهم قولة الامام علي عن الخوارج : (كلمة حق أريد بها باطل) ، وذلك بالضبط هو ما يعطي لكلامهم بعض مصداقيته ويسمح لهم بالتأثير . فثغرات من يواجهونهم بحديثهم ويوجهون لهم سهام نقدهم ... كثيرة ، والوقائع التي يمكنهم الاستناد اليها في دعواهم متصدعة . والاكثر من ذلك أننا لا نجاور كلبنان دولة مثل اسرائيل يكشف تحالفهم معها حقيقة أهدافهم للناس ، بل وحتى لأنفسهم ، غير أن هذه الظروف المناسبة ليست سوي حالة وقتية ، ولذا سامنا بـ « حسن نية » القاعدة المتبنية عفويا لتلك الاطروحات ، فاننا نستطيع أن ننبههم الى شيئين :

ـ ان الفرصة المواتية اليوم لتيارهم ، والتي يستثمرون فيها لنموهم ظروفا طارئة تتمثل ، من جهة ، في الجزر المؤقت لحركة الوطنيين الديمقراطيين ، ومن جهة أخرى في كون الجميع اليوم يستقبلون ، من مختلف مواقعهم ، قبلة الصحراء ، هي فرصة لها وقت تنتهي عنده . بالاضافة الى أن الطابع الانتهازي لمواقفهم ذاك يعري وحده حقيقة ممارساتهم وأهدافهم المسكوت عنها حتى الآن .

2 ـ أنه للمساهمة في صنع تاريخ غير مزيف ولا مؤقت لا يكفي أن يتوفروا على الكثير من النوايا الطيبة والارادات الحسنة فقط ، بل أساسا ، على وعي تاريخي للأهداف وللوسائل يكون مطابقا لحركة الزمن وللارادة العميقة للشعب في الانعتاق والتقدم . ان الوعي المغلوط والخاطيء يمكنه أن يصنع حركة جماهيرية وحتى نجاحات سياسية ... ولكنه لا يمنع من السقوط في النهاية وبلا شرف ولا بطولة . وأمثلة التاريخ عديدة في هذا الصدد ، حيث نجد أن كل حركة ،، تمارس فعلا دوعي مفارق للواقع ،، لا تؤدي في النهاية سوى الى نقيض نوايا وأهداف أصحابها .. والمثال النازي قديما والصهيوني حاليا أحسن حجة ، ولا يمكن انكار جماهيريتهما وقوتهما .

وأما بالنسبة للبورجوازية فان أفضل خدمة يمكن أن تقدمها لهذه القضية

هو الاستحواذ على سوق العمل ، بالصفة نهائيا ، اذ ان نطقها بحسب عقليتها لن يكون سوى كفر يرجع بنا القهقري أكثر ويدعم مستندات الخصوم وحججهم ، خصوصا في المسالة الاقليمية .

وعلى السيد « ابو انس » في جريدة « المحرر » ، أن يخفف من « وعظه الديني » وأن يتكيء أكثر على المنطق العلمي وقيم العقل متعاملا مع الديـن بأسلوب غير تكتيكي ولا انتهازي ، وانما بالتركيز على أحد أهم وظائفـه باعتباره تعبيرا عن تطلعات المسحوقين وطموحهم في انعتاق لا يمكنهم اليوم تحقيقه بغير الخط الاشتراكي العلمي .

وان أفضل ختام لهذا الحديث الذي أرجو الا يعتبر طويلا بغير ضرورة هو تذكر حكمة الشاعر العربي القديم ، بروايته الموضوعية والنافذة ، لحالة من الطبيعة تشبـه حالتنـا :

كناطح صخرة يوما ليوهنهـا ... فما وهنت واعيا قرنه الوعل

فمن الاكيد ، وعلى المستوى التاريخي ، أن مصير ناطحي الصخرة من مواطنينا لن يكون أفضل من مصير ذلك الوعل أمام الصخرة الصماء لوحـدة الوطن المصنوعة من عرق ودماء أجيال تلو أجيال في التاريخ المجيد لهذه الأمة.

هوامـش :

1 ـ لم يكن همي من هذه الورقات أن اقوم او اجايب احدا ، فايتي كانت ان اصغو وانبه ، فاذا انزلق القلم احيانا الى التقييم فان ذلك جاء بغير ارادة ، وبدافع ـ ربما ـ من طبيعة الموضوع التي لا يسمح ، لعاطفيته ، بتجرد مطلق .

2 ـ ان النقاش التفصيلي لتلك الدعوات ، وتقدير ما يتضمنه حديثها من حق وما يخفيه من باطل ، مع تحليل لايجابياتها وسلبياتها ... الخ فستكون له فرص أخرى قادمة ، بعد ما يكون الاقتناع قد استقر بين المهتمين على الضرورة الموضوعية والآنية لمواجهة في الميدان لتلك التيارات وغيرها من امثالهـا .

3 ـ ان اهمية هذا الحديث هي في كونه يفتح الباب للنقاش المطلوب من الجميع المساهمة فيه، فاذا هو لم ينجح في ذلك فسيكون بذلك حديثا باطلا .

4 ـ لا يجوز مطلقا ان يربط ايا كان بين بعض اشاراتنا الى المسالة الدينية وبين ما حدث في ايران ، اذ أنه الى جانب سابق اقتناعنا بما يتضمنه الموضوع الحالي عن احداث ايران من الناحية الزمنية الصرف ، فان الفروق تعتبر شاسعة جدا بين ظروف البلدين : ايران والمغرب . واختلاف وضع المسالة الدينية فيها ، مما لا يسمح مطلقا باعتبار احد البلدين نموذجا لـلآخـر .

5 ـ طرحت ، بصفة عارضة وسريعة ، بعض القضايا الدقيقة والشائكة احيانا . وما كان من الممكن الوقوف عندها نظرا لطبيعة السياق الذي لا يسمح بذلك ، ونحن نعد بامكان الرجوع اليها عند ما تسمح الظروف ، ومن تلك الموضوعات :
أ ـ الطبيعة اللادينية في العمق لفرض مادة التربية الاسلامية في مناهج التعليم .
ب ـ المسالة اللغوية في المغرب ، وبالخصوص مسالة الشلحة .
ج ـ الوضع غير العلمي والدور الايديولوجي للكثير من مدارس اللسنيـات الحديثـة وتأثيرها السلبي والمتنامي على مثقفيهـا .